كتاب (ابن ماجد الملاح)

كتاب ظهر منذ ربع قرن ولكنه مسافر فى تراثنا..

ألفه الدكتور أنور عبدالعليم أستاذ علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية فهو خير من يكتب عن الملاح الذى قاد سفينته «فاسكو دى جاما» إلى الهند.

ابن ماجد الذى لا يزال أهل «عدن» يقرأون له الفاتحة كلما خرجوا إلى البحر..

ابن ماجد صاحب المؤلفات الغزيرة فى علوم البحار والملاحة والتى لم تكتشف إلا فى القرن العشرين.

ويزخر التراث العربى الذى آل إلينا من القرون الوسطى بقصص الأسفار والمغامرات البحرية التى قام بها الملاحون والتجار العرب فى المحيط الهندى وبحر الصين فيما بين «سيراف» على الخليج الفارسى، و «كانتون» بالصين منذ القرن التاسع والقرن العاشر بعد الميلاد كما فى قصص «التاجر سليمان» و «أبو زيد السيرافى» العربى.

ونهلت الآداب الأوربية من هذه القصص كما يقرر هذا المستشرق دى خويه (De Goeje) ١٨٩٠ - ١٨٩٣ أثناء تحليله للأساطير الأوربية المبكرة فى كتابه:

La Légende de st. Brandan

وتدخل هذه القصص كلها فى محيط الادب الشعبى (الفولكلور) العالمى للقرون الوسطى

وإلى قصصنا الرائدة فى هذا المضمار، تنضم الكتب العربية فى «العجائب» التى تصف الغريب من حيوانات البحر وظواهره وأهواله كما فى كتاب «عجائب الهند» لـ بزرج بن شهريار (القرن العاشر الميلادى) و (تحفة الألباب) لأبى حامد الأندلسى الغرناطى (١١٦٠م) و (عجائب المخلوقات) للقزوينى (١٢٨٠م) و (عجائب البر والبحر) للدمشقى الصوفى (١٣٢٥م).

وتعكس هذه الكتب والقصص بشكل واضح، عمق التجربة العربية للملاحين والتجار العرب فى البحار الجنوبية، سواء أكان ذلك فى المحيط الهندى الذى كان يسمى بحر الهند،

وجزره وخلجانه أم فى البحار المترامية التى دفعتهم مغامراتهم إليها كأرخبيل الملايو وبحر الصين، إلا أن هذه القصص والحكايات لم تكن فى جملتها ذات طابع علمى أو عملى يوصلنا إلى الاستدلال على الخبرة الملاحية العلمية للملاحين العرب فى ذلك الوقت، والتى كانت ولاشك على درجة كبيرة من التقدم.

يقول المؤلف الدكتور أنور عبدالعليم أن الاعتقاد قد ساد لفترة طويلة من الزمن بأن مثل هذه الكتب لم تكتب على الاطلاق إلى أن أكتشف فى العشرينات من هذا القرن مخطوط عربى قديم يرجع عهده إلى المائة التاسعة الهجرية (القرن الخامس عشر الميلادى) كانت مكتبة المخطوطات بباريس قد حصلت عليه فى عام ١٨٦٠ من استاذ جزائرى تولى التدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فى ذلك الوقت.

وظل المخطوط منسيا حتى الثلث الأول من القرن العشرين حين قام المستشرق الفرنسى (جبريل فراند Gabriel Ferand) بالتحقق من قيمته العلمية فنشره لأول مرة فيما بين ١٩٢١-١٩٢٣) بطريقة التصوير الفوتوغرافى وعلق عليه.

وأسجل هنا فى اعتزاز انه توجد من هذا المخطوط نسخة بدار الكتب بالقاهرة محفوظة بالخزانة التيمورية.

ويعتبر هذا المخطوط فى الواقع أهم وثيقة فى الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الاطلاق. وتنحصر أهميته فى أنه أقدم الوثائق الجيدة التى وصلتنا والتى دونت عن الملاحة وفنون البحر فى البحار الجنوبية بين الساحل الشرقى لأفريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات، كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو «علم البحر» بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الأتيانوغرافيا أو الاقيانولوجيا Oceanography or Oceanology Oceanol-ogy .

ثم إن هذه الوثيقة تلقى كثيرا من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم فى فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر وعلى مدى تأثر البرتغال بالفكر العربى وبالتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام وفى المحيط الهندى بشكل خاص. وفضلا عن ذلك، فإن هذه الوثيقة

تحتوى على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التى تعتبر فى حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية فى الوقت الذى نسعى فيه لتعريب العلوم.

وينحدر ابن ماجد من أسرة ملاحين فأبوه ربان ماهر حتى كان يلقب بربان البرين (أى بر العرب وبر العجم)

ومن الطريف أن هذا الأب الربان دون بدوره تجاربه الملاحية فى مصنف ضخم ولكن شعرا فى أكثر من ألف بيت

وفى وصف الملاحة فى البحر الأحمر وسمى ديوانه هذا:

(الأرجوزه الحجازية)

«وابن ماجد» أى الربان الابن لا يعرف على التحديد تاريخ ميلاده إلا أن نشاطه كان فى أوجه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى حيث كانت كتبه فى وصف عالم البحار فى أيدى ربابنة المحيط الهندى والخليج وساحل الزنج.

وأهم كتب ابن ماجد، كتابه:
(كتاب الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد)

وهو يؤكد فى مقدمته أنه من العلوم المضبوطة العقلية يمكن الربان من الوصول إلى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواقع البلدان بالضبط بدلا من الطريقة الشمسية التى تعتمد على سقوط ظل الأعمدة فى دائرة مقسمة.. كما يمكن للانسان أن يتكسب به عيشه وأن يركب البحر وهو مطمئن القلب والنفس.

ثم يؤكد «ابن ماجد» أهمية التجربة واكتساب الخبرة بزيادة التحصيل ودوام السؤال عن المسائل الغامضة فيه وينصح الربابنة بالبعد عن الخيلاء عند كمال العلم.

وهنا نلمس التواضع وهو شيمة العلماء الأفذاذ

يتواضع «ابن ماجد» فى الحالين عند وجوب التأكد وعند كمال العلم.

ويؤكد هذا قوله بعد أن سجل فى الفصل الثالث من الكتاب المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التى يهتدى بها الربان فى عرض البحر:

ومن أراد زيادة المعرفة عن هذه النجوم وأصول تسميتها فإنا نحيله إلى كتاب أبى الريحان محمد بن احمد البيرونى الخوارزمى بعنوان (الآثار الباقية عن القرون الخالية) ففيه وصف ممتع لمجموعات النجوم واصل تسميتها ولعلم الأنواء المشهورة عند العرب وارتباطها بالمناخ).

ويحق لتراثنا العلمى أن يعتز بأن ابن ماجد العالم الخبير قد أعاد كتابة مؤلفه العظيم وكتابه الرائد أكثر من مرة.

إنه الأسلوب العلمى.. وانه التحقيق والتوثيق ثم الصبر على الإعادة سبيلا إلى الإجادة والاتقان.

لقد أفاد مهرة الملاحين من كتاب ابن ماجد سواء أكان هذا عن طريق القياسات الفلكية التى أعاد هو تحقيقها مرارا أم عن علامات البر من جبال وما إليها.

وقد طرح ابن ماجد فى كتابه (الفوائد) المعلومات والإرشادات التى يجب على الربان الإحاطة بها ومنها معرفة المنازل والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم السفر فى البحر وآلات السفينة وما يحتاج إليه الربان منها.. وتغير المياه ومد البحر وجزره.

وهذه كلها معلومات اقيانوغرافية من الطراز الأول.

ومما توصل إليه «ابن ماجد» تقسيم النجوم والكواكب حسب درجة لمعانها إلى ست مراتب وإرشادات ملاحية للسير ليلا بين السواحل المختلفة.

يقول ابن ماجد فى الفصل السابع من كتابه (والله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات إلا بعد أن كررت عليها عشرين سنة)!!

وقد وصف ابن ماجد فى كتابه الجزر الكبار المشهورات وأولها بطبيعة الحال جزيرة العرب وجزيرة القمر وهى جزيرة مدغشقر وجزيرة سومطره وجزيره جاوه وجزيرة الغور وبها معدن الحديد الغورى والسيوف الصافية القاطعة لجميع الحديد.

ترى هل انحدر منها السلطان الغورى؟ ربما

والجزيرة السادسة: سيلان

والجزيرة السابعة: زنجبار وبها أربعون مسجدا

ويمضى بالوصف الى الجزيرة العاشرة

وابن ماجد فى الفصل الثانى عشر من كتابه العظيم يقف وقفة طويلة محتشدة عند البحر الاحمر وجزره وشعبه المرجانية ويتكلم بدقة عن المسافات بين المراسى المختلفة وعن طبيعة القاع فى بعض الأماكن وعن الأعماق فى مداخل البرور بدقة بالغة ويحذر من الشعب المختلفة.

وقد عدد ابن ماجد أسماء الكتب والمراجع الفنية التى يجدر بدارس البحر استيعابها وأغلبها فى الجغرافيا الوصفية والفلكية والرياضية.

وهى الطريقة المنهجية فى التأليف

وهكذا رسم العرب خرائط بحرية للارشاد الملاحى

كما أدخلوا تعديلات قيمة على آلات الملاحة والرصد منذ عرفوا الملاحة فى عرض المحيط.. ومن هذه الآلات: الاسطرلاب أى آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم ولم يصنع من الاسطرلاب أحسن مما صنع العرب بشهادة علماء أوربا أنفسهم فى هذا المجال.

وفى متحف باريس اسطرلاب من صنع احمد بن خلف من منتصف القرن العاشر الميلادى يفوق فى صناعته وتدريجه ما صنع من هذه الآلة فى اوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادى.

وكانت اوربا تجهل تماما كل شىء عن البوصلة البحرية واستخدامها فى الملاحة حتى وفدت سفنهم الى المشرق آبان الحروب الصليبية فعرفوا البوصلة من العرب لأول مرة وشاع استعمالها بعد ذلك فى اوربا بل كانت تعد أعظم اكتشاف ملاحى بالنسبة لهم لأن سماءهم تكتنفها الغيوم والسحب فى أغلب أوقات السنة وبخاصة فى الأصقاع الشمالية ولا يسهل دائما التعرف على الجهات الأصلية ليلا بالنجوم فى تلك الأصقاع.

وكان العرب أسبق من أهل أوربا بزمن طويل فى معرفة الوقت وتحديده إلى جانب تحديد الاتجاه سواء أكان ذلك فى البر أم البحر. ولتقدم العرب فى «علم الميقات» سبب قوى هو حاجتهم لتحديد الزمن لمعرفة أوقات الصلاة، مثلما كانت حاجتهم ماسة أيضا إلى تحديد القبلة فى الممالك والأمصار التى فتحوها.

ويزخر التراث العربى برسائل وكتب قيمة ألفت سواء فى المشرق أو فى المغرب (الاندلس) فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى وذلك فى علوم:

الميقات وفى تحديد الاتجاه وخطوط طول البلاد وعرضها.

وكان العرب يتعرفون على الوقت نهارا بالمزاولة وليلا بتحديد حركات القمر والنجوم فى أبراج السماء

أما فى الجغرافيا الوصفية فقد كانت سواحل المحيط الهندى وجزره معروفة جيدا للعرب وبتفصيل كبير بينما هى مجهولة تماما بالنسبة للبرتغال حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا.

ولقد عرف أهل اليمن وعدن بخاصة فيما عرفوا الساحل الافريقى الشرقى كله تقريبا وذلك حتى قبل الاسلام بزمن.

وقد وصف الرحالة والمؤلفون العرب بعد ذلك هذا الساحل بتفصيل كبير ورسموه.

ومن هؤلاء (المسعودى) و (ابن الوردى)

أعود فى الختام إلى ابن ماجد لأسجل إحدى طرائفه فقد ألف كتابه الثانى أقصد نظمه شعرا. وهذا الكتاب اسمه:

(حاوية الاختصار فى أصول علم البحار)

ماذا أقول؟ من شابه أباه فما ظلم.

وهكذا ظفر البحر من أبيه بأرجوزته الحجازية ومنه بحاوية الاختصار.

وبعد: فإن كتاب ابن ماجد الملاح يقع فى خمسة فصول:

الفصل الأول عن سيرة ابن ماجد وحياته

والفصل الثانى عن (اثر الفكر العربى على الملاحة البرتغالية وتاريخ البوصلة البحرية)

الفصل الثالث عن (قصة ارشاد ابن ماجد، لفاسكو دى جاما الى الهند عام ١٤٩٨م)

والفصل الرابع: عن مؤلفات ابن ماجد

أما الفصل الخامس فيزخر بالمصطلحات العلمية كالمصطلحات الملاحية وأنواع السفن العربية.

ومراتب البحارة
وادوات السفينة وأجزاؤها
ثم مصطلحات بحرية
ثم تحقيق بعض المواقع الجغرافية والتاريخية التى ورد ذكرها فى كتاب ابن ماجد
أولا: البحار
ثانيا: الجزر
ثالثا: الرؤوس المشهورة
رابعا: السواحل والثغور التى دخلها ابن ماجد
ثم النجوم الملاحية ومرادفاتها بالعربية وما يقابلها فى اللغات الأجنبية

ومن هذا يتضح الكم الكبير من المصطلحات العربية التى دخلت فى اللغات الأجنبية خاصة الأسبانية بمنطوقها العربى تقريبا

مثل: الدبران Aldebran
القائد Alkaid
الفرد Alphard
أمير البحر Adimiral
دار الصناعة Arsenal
رزق Risk أى المغامرة
وصل Wissil الألمانية
وبعد مرة أخرى:

ليست المسألة فقط دور ابن ماجد فى قيادة فاسكو دى جاما إلى الهند بل Radeurigo de lobi أحد أعضاء رحلة كولمبوس، أول أوربى يضع قدميه على أرض العالم الجديد أمريكا متأثرا بالمسلمين فى الأندلس حتى أنه بعد عودته إلى أسبانيا أعلن إسلامه على الرغم من وجود محاكم التفتيش فيها، فى ذلك الوقت.

ليتنا نعرف أمجاد الإسلام الرائعة والباتعة ولا أزيد.